الإمامة في الغرب

مقدمات في فقه الواقع

الحمدلله رب العالمين. والصلاة والسلام على الهادي الأمين.

السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فأحيي السادة العلماء، والأئمة الفضلاء، والضيوف الكرام، وأحيي إدارة المؤتمر على هذه السنَّةِ الحميدة في العناية بالإمام، تكويناً وتثقيفاً، وتشريفاً وتكليفاً، ونعتقد أن صلاح الأئمة، صلاح لمن حولهم، وفسادَهم فسادٌ لمن حولهم. و"**إنما جُعلَ الإمامُ ليُؤْتمَّ به**" - في الصلاة، وخارج الصلاة- ولو كانت وظيفة الإمام **محرابيةً أو منبريةً**- على حد تعبير أحد العلماء- أي مقصورة على تنظيم حركة الصلاة، وسرد الخطبة؛ لهان الأمر؛ ولكن الأمر- كما تعلمون- أعمقُ من ذلك وأوسعُ.

الإمامة- أيها السادة- **وراثة نبوية، وقدوة دينية شاملة**، وخصوصا في الواقع الأوروبي، الشائك، المركَّب، الدقيق، الذي يمثل فيه الإمام أشياء كثيرة، وتناط به وظائف عديدة، تنوء بالعصبة أولي القوة! فهو الإمام الرمز، الذي يؤم الناس في صلاتهم، وهو الخطيب الموجِّه، والواعظ المرشد، وهو الأب المربي، والمرجع الفقهي، والمستشار الاجتماعي، وهو

صورة الإسلام ومرآته في المجتمع الغربي... وباختصار، الإمام هنا **كالشمس للدنيا، والعافية للبدن**، كما قال الإمام أحمد في الشافعي- رحمهما الله- .

ولما كان أمر الإمامة عظيما؛ دعا النبي صلى الله عليه وسلم للأئمة بالرشد؛ قائلا: "...**اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين!**" رواه أبوداود. وهو في صحيح الجامع...

ومعلوم أن دعاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم مجاب، ليس بينه وبين الله حجاب!.

وكما تدارسنا أيها السادة "**واقع الأئمة في فرنسا**" في الأعوام الماضية، واجتهدنا في ذلك حسب المستطاع؛ بمعية أخينا الفقيد، الفقيه، الدكتور فريد الانصاري، يرحمه الله، فإنه يحسن أن نتدارس اليوم واقع المأموم في فرنسا، وأوروبا؛ لأن الجهل بهذا الواقع، أو تصوره على غير حقيقته، يؤدي أيضا إلى ظلم لهذا المأموم، ويفضي إلى طامَّات كبرى في الفهوم والتصرفات. وصدق من قال: "**تصرفاتنا فرْعٌ عن تصوراتنا**". ومن ثَمَّ كان الشرط في الإمام الرباني، الوارث، **أن يكون عالما بالله، عالما بالشرع، عالما بالناس**، أي بواقعهم. ولا ربانية، ولا إمامة، ولا نيابة، ولا وراثة، بغير هذه العلوم، **مجتمعةً، متعانقةً، متكاملة**. وفي هذا السياق، يسَّر الله تعالى تقييد ومضات بعنوان:"**كيف تكون إماما ناجحا في الغرب؟**" نثرت فيها كنانة القلب، وتحدثت حديث مودِّعٍ، عن واقع

المأموم في الغرب، وكيفية التعامل معه، **سلباً وإيجاباً، وإيماناً واحتساباً**، بناء على تجربة ذاتية، ومكابدة يومية، وبقدر غير قليل- إن شاء الله- من العفوية والموضوعية! وهذا الموضوع من أربعين صفحة، أو يزيد، (منشور على شبكة الإترنيت) **لمن شاءَ الرجوعَ إليه، أو نَقْدَهُ، أو نقْضَهُ**. و لم لا ؟ وهو اجتهاد **يحتمل الخطأ والصواب!**. ورحم الله إمامَ العربيةِ، مصطفى صادق الرافعي إذ قال: "**إذا أردتَ أن تأخذ الصوابَ؛ فخذه عمن أخطأ**" فرجائي من إخواني الأئمة الجدد، أن يلتقطوا هذه الحكمة الرافعية، وأن لا يكرروا أخطاءنا وتجاربنا الماضية!. **فإن تكميل الكامل، أولى من تحصيل الحاصل!**

واسمحوا لي أن أكتفي في هذه الكلمة المتواضعة، بحديث جامع، عن فقه الواقع، لأهميته، وضرورته، وحاجتنا جميعا إليه. أما الواقع الإسلامي الأوروبي بشكل خاص، فهو ملف كبير، وكبير جدا، يتطلب بحوثا أكاديمية، ودراسات متخصصة، ولا ينفع فيه التهوين والتهويل. والارتجال والاختزال. ومع ذلك فلا بد من إشارات وومضات، من باب: "**فإنْ لَمَ يُصِبْها وَابِلٌ فطَلٌّ**". البقرة.

ما ذا نقصد بفقه الواقع؟

الحق، أن مفهوم فقه الواقع قديم، قِدَم الفقه الإسلامي نفسه، وليس جديدا أو بدعة- كما يروج البعض- ولكنَّ التسميةَ هي الجديدةُ، والمصطلحَ هو الحادث، ولا أعرف بالتحديد أولَ من استعمل هذا

المصطلح، من علمائنا المتقدمين والمتأخرين، وأقدم من وقفت على استعماله لهذه الصيغة- على ما أذكر- هو الإمام ابن القيم، رحمه الله، في "**إعلام الموقعين**"، حيث ذكر "**أن الفقيه هو من يزاوج بين الواجب والواقع**" أي لا يعيش فقط فيما يجب أن يكون، بل فيما هو كائن وواقع بالفعل.

ويطلق الواقع في اللغة على الشيء الحاصل الموجود، نقول: ارْضَ بالواقع، وانْزِلْ إلى أرض الواقع، والخيرُ في الواقع، وكن رجلا واقعيا، وهذا أمر واقع، أي حاصل وموجود، لا يمكن إنكاره، وتجاوزه. وفي القرآن" **إنما توعدون لواقع**" سورة الطور.

ففقه الواقع من حيث التركيبُ الإضافي- كما عرَّفه البعض-: **هو فهمُ الحاصل من أمور الناس، ومعرفةُ ما يجري في العالم والعصر، بعيدا عن المفترَض المستحيل، والوهم والخيال**. ولا مشاحة في الاصطلاح. المهم، هو أن هذا المصطلح الشائع الآن على ألسنة الدعاة والمفكرين، ليس ببدعةٍ مذمومةٍ، ولا بشيء دخيل على فكرنا الإسلامي، وثقافتنا الفقهية. فكل الفقهاء كانوا يستخدمونه عمليا- وإن لم يعرفوا اسمه- من خلال عنايتهم بأسباب النزول، وفقه النوازل، و... وطالع على سبيل المثال "**المعيار المعْرِب**" للونشريسي، و"**فتاوى تتحدى الإهمال، في شفشاون وما حولها من الجبال**" للمواهبي الهبطي؛ تجدْ هذا الاتصال بين فقه الشرع، وفقه الواقع، بشكل واضح ملموس.

وفقه الواقع، أو "**فقه تحقيق المناط**" بالمصطلح الفقهي الأصولي، هو **من الاجتهاد الذي لا ينقطع إلى يوم القيامة**، على حد تعبير أبي إسحاق الشاطبي في الموافقات. وذلك أن الفتوى تحتاج من المفتي إلى: **فقه بالكتاب والسنة والإجماع، وإلى فقه بواقع المستفتي، والحال، والزمان، والمكان**، وإلا كانت فتواه غير ناضجة، أو شاذة؛ لبعدها عن الواقع، وتنزيلها على مناط غير صحيح. فالفقيه-كما قال أحد الفقهاء- أشبه بالطيار، لا ينزل على مطار، أو على أرض معينة، حتى يتصورها تمام التصور. أو قل هو أشبه بالطبيب، لا يصف الدواء المناسب إلا إذا عاين المريض، وفحصه الفحص الدقيق.

وكثير من الفتاوي الشاذة والمنكرة، التي تصدر في غير محلها، ههنا بأوروبا، لم تصدر – في الغالب- بسبب الجهل بالنصوص، ولا بفقه النصوص؛ ولكن بسبب التصور المغلوط للواقع، وعدم الاستعانة بأهل الاختصاص والخبرة. ومن ذلك- على سبيل المثال- بعض الفتاوي المتعلقة بالولاء والبراء، والسلم والحرب، والأسرة والمجتمع، والسياسة والحكم، والمال والاقتصاد. فكثير من الخلل أو القصور في تكييفها- فيما يبدو- أصله عدم تحقيق المناط، أيْ عدمُ التصور الصحيح لأحوال الأقليات، وقياسِ أوضاعهم الاجتماعية والمادية، والسياسية، على أوضاع غيرهم في بلاد الأكثريات – إن جاز التعبير- ولا قياس مع الفارق. **وقد جرَّتْ هذه الفتاوي على الناس مشكلات كثيرة لم تزل تُعْنِتُ الخلْقَ،**

وتُشْجِي الحَلْقَ كما عبر العلامة ابن عاشور رحمه الله في "مقاصد الشريعة".

ولا يمكن للفقيه أو الإمام أن يفقه الواقع باجتهاده الشخصي، أو أن يقرأه فقط على الورق، مهما حاول ذلك؛ بل يجب الاستعانة بأهل الاختصاص والخبرة، كما تفعل الآن المجامع الفقهية، والمجالس العلمية، وخصوصا بعد الثورات التكنولوجية، والإلكترونية، والفضائية، وغيرها.

وكثير من الاتجاهات المتشددة هنا وهناك، كانت -ولا تزال- ضحية الجهل بالواقع، وانكماشها على الذات، ولا ينقصها- والله أعلم- إخلاص، ولا حماس، ومن كلام ابن مسعود رضي الله عنه: **"رحم الله امرءا عرف زمانه؛ فاستقامت طريقته!"**

وقد علمتنا الحياةُ أن كل من رَامَ غرضا من أغراض الإصلاح دون معرفة كافية بالواقع، وانخراطٍ فعلي فيه؛ يكون مصيرُه الفشلَ والإحباطَ، ويكون طموحه أقربَ إلى طموح فلاسفةِ **المدينة الفاضلة**، (ومنهم الفارابي) التي لم تتحقق إلا في عالم الخيال. وكثيرا ما نسمع هنا من بعض أبنائنا الطيبين، وأئمتنا الناشئين شيئاً من هذه المثاليات، أو "غفلات الصالحين"؛ فأقول: هل أنتم ياأبناء! في الأرض أم في السماء؟ هل أنتم في عالم البشر، أم في عالم الملائكة؟ بالله عليكم، أخبرونا... أهذا حلمٌ أم يقظةٌ؟ ألا تؤمنون بالسنن الإلهية؟ والأسباب الشرعية؟... وصدق من قال: " **لا ينضج العالم إلا إذا جمع بين المدارسة والممارسة**".

وقد فقه علماؤنا قديما- أيها السادة والسيدات- **هذا التعاضد المتين، بين فقه الواقع وفقه الدين**، وتعاملوا بمقتضاه مع كل الأقضية التي حدثت لهم في زمانهم، فهذا إمامنا مالك- يرحمه الله- **يَرْقُبُ واقعَ المسلمين في المدينة، ويتعمق في فهمه؛ ليتخذ منه أصلا من أصول مذهبه، وهو ما عُرِف بعمل أهل المدينة،...وهذا الإمام ابن أبي زيد القيرواني، المالكي، صاجب "الرسالة" يقتني كلبا للحراسة، ويَرْبِطُهُ في الدار، مخالفا لما نُقل عن صاحب المذهب من كراهية ذلك، فلما قيل له في ذلك، قال: لو أدرك مالك زماننا لاتخذ أسدا ضاريا!** يعني أن الواقع تغير واختلف.

وهذا الإمام الشافعي، رحمه الله، ينطلق في اجتهاده من واقع الناس في معاملاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم، ولذلك كان له مذهبان، مذهب بالعراق، ومذهب بمصر، أو مايسمى بالقديم والجديد- كما هو معلوم- وكان أبو حنيفة يمشي في الأسواق، ويتعاطى التجارة بنفسه. ومثله تلميذه القاضي أبو يوسف، صاحب الخراج. وكذا كان الإمام الكبير الليث بن سعد، وغيرهم كثير.

وتولى كثير من العلماء الكبار القضاء، والوزارة، والإدارة، ابتغاء الخير والنفع، **وأثمر ذلك كله اجتهادا فقهيا ثريا، ومعالجة واقعية للأحداث والنوازل، تجلت بشكل بارز في مصنفاتهم الرصينة، وفتاواهم القائمة على العلم والحكمة**. ومنهم القاضي ابن العربي، والقاضي عياض، والقاضي ابن حجر العسقلاني، والقاضي الشوكاني، وابن حزم الوزير،

والسفير ابن خلدون، والقاضي ابن رشد، والوزير المحدث، أبو شعيب الدكالي، والوزير العابد الزاهد، الفقيه محمد بن العربي العلوي، والوزير الفقيه، محمد الحجَوي الثعالبي الفاسي، والوزير الصحافي المحافظ، العلامة عبد الله كنون، والفقيه الوزير عبد الله بن بيَّة... وهلم جرا.

ولقد نقرأ في بعض كتب السير والتراجم والمناقب، أن فلانا من العلماء، كان تقيا، خفيا، مشتغلا بما يعنيه!... غائبا عن أخبار بلده، وأحوال مجتمعه، منكبا على القراءة والكتابة، ولا تلقاه إلا بين المسجد والبيت!.... وأن فلانا الآخر، كان يفر من الناس فراره من الأسد، أو أشد! ولا يخالطهم في بيع ولا شراء، ولا في وَلاية أو قضاء!. وهذا وأكثر منه وارد في كتب السير والمناقب -بلا شك-.

ومن باب حسن الظن بعلمائنا وأكابرنا، يُقَالُ: الأوْلى حمل ذلك كله أو بعضه على ظروف معينة، أو أعذار شرعية. فإننا لا نعلم عن أكابرنا إلا الإيجابية والخير، و"**الذِّكْرَ والذِّكرَى، وبذلَ النصيحة لعامة الورَى!**"- على حد تعبير ابن عسكر في "دوحة الناشر". وتبقى القدوة في الرسل والأنبياء، عليهم السلام، الذين كانوا- كما وصفهم القرآن- "**يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**" سورة الفرقان. كنايةً عن اختلاطهم بالناس، وانخراطهم الفعلي في الواقع، أو فيما يسمى الآن ب"المجتمع المدني". وكيف كان يتأتى لشعيب عليه السلام- مثلا- أن يحارب الجشع المالي، وتطفيف الكيل والميزان؛ لولا انتشاره في الأسواق، ووقوفه على

هذه المشكلة عن كثَبٍ، ومن قواعد الحِسبة -كما ذكر القاضي أبو يعلى في ا"لأحكام السلطانية"- : **الاستخبار قبل الإنكار**" ومعلوم أن الكيل والميزان محلهما الأسواق، لا المسجد والمحراب! وأنَّ لموسى الكليم عليه السلام أن يحرر قومَه من إرهاب فرعون وملئه؛ لولا اختلاطه بالقوم، واطلاعه على أحوالهم ؟ وكيف استطاع رسول الله محمد "صلى الله عليه وسلم" أن يسوس قريش، وغيرهم من المخالفين والموافقين؛ لولا فهمه العميق لأحوالهم، وزمانهم، ومكانهم؛ بل إنه صلى عليه وسلم كان يتابع الأخبار الخارجية، ويعرف واقع البلدان القريبة والنائية، كالفرس، والروم، والحبشة، وإلا فكيف يوجه أصحابه إلى الهجرة نحو الحبشة دون غيرها، قائلا: "**إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد...**" أو ليس هذا دليلاً واضحاً على فقهه بواقع الحبشة؟ وقال عليه الصلاة والسلام عن اليمنيين: "**أتاكم أهل اليمن، أرق أفئدة، وألين قلوبا، الفقه يمان والحكمة يمانية**" متفق عليه. وهذا دليل على خبرة عظيمة بخصائص الشعوب. وما أحوج الإمام في الغرب إلى هذه الخبرة!

وكان له صلى عليه وسلم أيضا علم بطبائع الأفراد، وأخلاقهم، وميولهم، مواهبهم، يقول صلى الله عليه وسلم : "**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقرؤهم لكتاب الله أبيٌّ، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة**" الترمذي وأحمد بسند صحيح.

وهذا العلم مهم جدا للإمام في أوروبا، حيث تختلف الأجناس والألوان، والأعراق والأذواق، وتتنوع المواهب والطاقات داخل المسجد الواحد. فيكون من الحكمة والكياسة استخدام هذه المواهب بشكلٍ متكاملٍ، ووضْع الرجل المناسب في المكان المناسب.

والمتتبع لكلامِ النبي صلى الله عليه وسلم يجد أجوبة متعددةً لسؤال واحد، حتى ليخيَّل إليك أن هناك تناقضا، أو تعارضا. وحاشا وكلا. ولكنها الحكمة، والكياسة، ومخاطبة الناس حسب الأفهام، ودرجات الوعي، واختلاف الأحوال. والأمثلة على ذلك كثيرة في السنة والسيرة.

وبالمناسبة، فإن أعظمَ مصدر لفقه الواقع -بعد القرآن- هو سيرةُ النبي صلى الله عليه وسلم، ويكفي أن يعامل الإمام مأموميه بما عامل به النبي الإمام مأموميه، في المنشط والمكره، والغضب، والرضى. أو ليس هو الإمامَ الأولَ في هذه الأمة؟ ألا يسعنا ما وسعه؟

وانظر إلى الصحابة، رضي الله عنهم، كيف ورثوا هذا الفقه- فقه الواقع- من رسول الله عليه الصلاة والسلام، واستوعبوا خصائص الشعوب والبلدان، بشكل مدهش. ففي صحيح مسلم، قال **المستورد القرشي** عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقول: تقوم الساعة والروم- الأوروبيون- أكثر الناس، فقال له عمرٌو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: لئن قلتَ ذلك، إن فيهم لخصالا أربعاً: **إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّةً بعد فَرَّة، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ: وأمنعُهم من ظلم الملوكِ"**

وكثير من الناس- والحمد لله- واعون بهذا الفقه، راعون له في الجملة؛ ولكنهم- مع الأسف- يغفلون عن خصائصه، وضوابطه، ونواقضه.

فمن خصائص فقه الواقع مثلا : التغير والتحول، والتنوع والتعدد.

فالواقع في المغرب، غير الواقع في المشرق، والواقع في البادية غير الواقع في الحاضر والواقع في سوس، غير الواقع في فاس، والواقع في العالم الإسلامي غير الواقع في العالم الغربي، والواقع في بريطانيا، غير الواقع في فرنسا، وواقع الإمامة في أوروبا، غير واقع الإمامة في المغرب أو المشرق، وواقع الجيل الأول من المهاجرين، غير واقع أولادهم وأحفادهم المواطنين، الأوروبيين، لغة، ولساناً، و، ... وواقع العمال غير واقع الطلاب والمثقفين، وواقع الإسلام **قبل أحداث شتمبر2001**م غير الواقع بعد ذلك، وعَلمانية فرنسا، غير عَلمانية إسبانيا، وبريطانيا، وبلجيكا. وواقع الشباب غير واقع الشيوخ، وواقع المرأة غير واقع الرجل، وواقع المرأة المثقفة، غير واقع المرأة الأمية....وهكذا **نجد الواقع دائما في حركة، وتنوع، وتغير، وتجدد.** ودوام الحال من المحال- كما قيل- وصدق الله: "**وتلك الأيام نداولها بين الناس**" آل عمران.

الواقع -كما ذكر الأستاذ أحمد الريسوني في كتاب" الاجتهاد، النص، الواقع، المصلحة" **"كالنهر الجاري، لا تستحم فيه مرتين، أي في كل مرة تستحم فيه تكون في نهر جديد، أي ماءٍ جديدٍ، غيرِ الماء الذي استحمَمْتَ فيه سابقا، وكذلك الواقع، ففي كل يوم، بل في كل لحظة، واقع جديد، يختلف كثيرا أو قليلا عن سابقه.**". ص: 68.

وهذه التغيرات الكبيرة والعميقة، تؤثر بطبيعة الحال على الفتاوى والأحكام، والمواقف والقرارات، لتغير الأعراف والعادات، والموازنات والأولويات.

وعلى سبيل المثال: فإن فتوى التجنس والإقامة في بلاد أوروبا، تختلف من واقع الحرب إلى واقع السلام، ومن واقع الحرية، إلى واقع التضييق والاضطهاد، ومن واقع الهجرة، إلى واقع المواطنة والاستقرار الدائم.

ومما يساعد على الفقه السليم للواقع: المتابعة المستمرة للأحداث والوقائع، دِقِّهَا وجِلِّها، خيرها وشرها، حلوها ومرها. (وحبذا لو التزم الإمام بتصفح الجريدة اليومية، والمجلة الأسبوعية، وتابع النشرات الإخبارية). ذلكم أن الانقطاع – ولو لفترة قصيرة- عن قراءة الواقع، والتفاعل معه؛ يؤخر الإنسان كثيرا، ويُفقده ملَكَةَ تحليل الأحداث، وربطها ببعضها البعض، بشكل تلقائي سليم. ورضي الله عن سيدنا حذيفة بن اليمان، القائل: **كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركني**..." " البخاري.

وهذه حال المومن – كما يقول الطبري رحمه الله، في تفسير قوله تعالى: "وكذلك نفصل الآيات ولتستبينَ سبيل المجرمين" الأنعام –: "**يكون فطنا حاذقا أعرفَ الناس بالشر، وأبعدَهم منه، فإذا تكلم في الشر وأسبابِه؛ وجدته من شر الناس، فإذا خالطته وعرفت طويَّته رأيته من أبرِّ الناس**".

ومما يساعد على فقه الواقع أيضا: التحلي بالحكمة والرزانة، وعدم التعامل بذهنية ردود الأفعال، وامتلاك القدرة على الموازنة، والقياس، والتمحيص، والتنقيح، والغربلة، واستشارة المجربين، والخبراء، وأهل السابقة، وقراءة المذكرات، والسير الذاتية، ودراسة التجارب بأنواعها، دراسة نقدية، لاستثمار الإيجابيات، وتفادي العثرات... وهلم جرا.

ما هي نواقضُ فِقْه الواقع؟ أو ما هي العلامات التي تدل على جهل بالواقع؟

لا شك أنها كثيرة، ومتنوعة، ومن أبرزها: التهوين والتهويل، أي: تضخيم الهين، وتهوين العظيم، أو بعبارة أخرى، تشوُّش الأولويات، واضطراب ترتيبها في الذهن، فهناك- مثلا- ناس يقاتلون على أشياء، صغيرة، وثانوية، يمكن التسامح فيها، أو التفاوض عليها، أو تأجيلها، أو إلغاؤها بالكلية، ويغفُلون قضايا حيوية ومصيرية، تتعلق بوجودهم، ومستقبل أسرهم، ومجتمعهم، وأوطانهم!... **وهؤلاء إن جاز تسميتهم علماء، فإنه لا يجوز تسميتهم فقهاء!**- كما قال أحد العلماء-.

ومن هذه العلامات أيضا: المثالية الجانحة. الانكماش على الذات. الشعور بالقداسة والطهر المطلق. ذهنية الدروشة وغفلات الصالحين. التكبر والاستعلاء على الآخر. ذهنية المغالبة والتحدي. تغييب السنن الكونية الجارية. العشوائية والارتجال. الأحكام المسبقة. الصور النَّمطية. النظرة الأحادية. البساطة والسطحية. الفهم الخاطئ لنصوص الولاء والبراء. عقلية الرفض المطلق، أو القبول المطلق. التعصب المقيت للأشخاص، والمذاهب، والانتماءات ... والقائمة طويلة.

وبعض الناس يفقهون الواقع جيدا، ويعتنون به، أيما اعتناء؛ ولكن مع الأسف- يتجهون اتجاهات خاطئة في هذا الفقه؛ مما جعل كثيرا من المتشددين من هذا التيار أو ذاك، يرفضون هذا المصطلح، جملة وتفصيلا، شكلا ومضموناً، ويتهمون أهله بالابتداع والمروق، والجهل والفسوق، ويقولون: فلان من فقهاء الواقع، لا من فقهاء الشرع، ويعنون بذلك أنه من قراء الجرائد والمجلات، لا من خريجي المعاهد والكليات. وصدق من قال: التطرف يولد التطرف، والإقصاء يولد الإقصاء.

ومن هذه الاتجاهات الخاطئة التي يمكن الإشارة إليها ههنا، بشكل سريع.

أ- **الاتجاه المتميع**: الذي يؤصل الأحكام كلها، أو جُلَّها، بفقه الواقع، وقراءة الواقع، وضغط الواقع. فلا كتاب، ولا سنة، ولا فقه، ولا أصول، ولا ثوابت... المهم عنده هو فقه **الواقع**،

والتغنِّي بالواقع،... أما علماء الفقه، فهم- في رأيه- لا يفقهون الواقع، وغائبون أو مغيَّبون عن الواقع، وربما لقبوهم- ظلماً- بفقهاء الحيض والنفاس، أو بفقهاء الكتب الصفراء، أو الوعاظ...أو رجال الدين . وربما حملوهم المسؤولية التاريخية في تخلف المسلمين، وإعاقتهم عن الوصول إلى القمر! **وهذا فهمٌ سقيمٌ للدين والواقع معا**، وميوعة لا تقرها الشريعة والفقه (على المذاهب الثمانية، لا على مذهب مالك فقط) لأن فقه الواقع -كما أشرنا سابقا- لا ينفك أبداً عن فقه الشرع، **والعلاقة بينهما علاقة البناء بالأساس، أو الوضوء بالصلاة**، كما عبر أحد إخواننا الفقهاء، رحمه الله.

ب- **الاتجاه المسوِّغ**: الذي يسوغ كل الأخطاء والخطايا، أو يبررها بفقه الواقع، وضغط الواقع، والأمر الواقع.

ج- " **المتشائم**: الذي يتشاءم من الواقع، ولا يرى أملا في الإصلاح والعلاج، وينسى أن بعد العسر يسرا، وأن دوام الحال من المحال.

وزاد بعض الكتاب - حسب ما وقفت عليه -.

-**الاتجاه التآمري**: ولعله يقصد بذلك الاتجاه الذي يفسر كل المصائب النازلة بالمسلمين في القديم والحديث، بنظرية المؤامرة، وتدخل الأيدي الخفية في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلمين. **وهذا من الوهم**

المريح، فإن المسلم- كغيره من البشر- فاعل ومنفعل، ومتأثر ومؤثر، وهو مسؤول عن ما كسبت يداه، مطالب شرعا بنقد الذات، ومحاسبة النفس.

-**الاتجاه الانعزالي**: ويقصد بذلك- ربما- الاتجاه الذي اختار العزلة التامة عن المجتمع، والبعد عن الواقع. هروبا من ضرائب الإصلاح، وتبعات التغيير.

-" **الصدامي**: ويقصد بذلك- طبعا- الاتجاه الذي اختار المواجهة والصدام، منهجا وسبيلا- على مذهب فوكوياما وهايتِنْتون- بدلا من المحاورة، والمصابرة، والنَّفَس الطويل... وهذا اتجاه مرفوض عقلا وشرعا.

أما عن خصائص الواقع الإسلامي الأوروبي وتحدياته: فإنها كثيرة، ومتنوعة، ومركبة، ومنها الإيجابي، ومنها السلبي.

فأما الإيجابيات فهي معلومة: كالحرية، والتعددية، والحقوق الاجتماعية، والرفاهية المادية، وتشجيع البحث العلمي، وسمة الإتقان، وتوفر المدارس والجامعات، ومراكز البحوث والدراسات، وصرامة القانون، والاستقرار السياسي،...

وأشير هنا إلى بعض السلبيات والتحديات الكبرى، ومن أبرزها:

- غياب المرجعية الفقهية، التي تحسم الخلاف، ويرجع إليها الجميع في الفتوى.

- غياب الوسائل الإعلامية الدينية، التي يمكن من خلالها نقل الصورة عن الإسلام والمسلمين الصحيحة.

- غياب القوة الاقتصادية المؤثرة، وعجز المسلمين الأوروبيين عن تمويل مشاريعهم الدينية والخيرية، كالمساجد، والمدارس، والمقابر...

- تفاقم المشكلات العائلية، وارتفاع نسبة العنوسة والطلاق.

- الفرقة والاختلاف داخل المساجد والمؤسسات الدينية، بسبب نقل الجاليات المسلمة خلافاتها المذهبية، وصراعاتها الحزبية من بلدانها.

- بروز تيارات التشدد، وجماعات الغلو، بسبب التأثير الإعلامي، والفراغ الروحي، وندرة العلماء في البيئة الأوروبية.

- انتشار العنصرية والإسلاموفوبيا، وتضاعف مشاعر الكراهية ضد العرب والمسلمين.

- أزمة الأئمة والخطباء والقراء، وإسناد الأمور إلى غير أهلها في كثير من المساجد والجمعيات.

والقائمة طويلة، والحديث ذو شجون. ودور الإمام هنا في أوروبا هو: التعمق في فقه هذا الواقع، وقراءته قراءة واعية سليمة، و"**جلب المصالح، أو تكميلها، ودفع المفاسد، أو تقليلها**" كما قال الله تعالى على لسان خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام" **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله**"سورة هود.

وإن التحليل العميق للواقع -أيِّ واقع- يؤدي -في العادة- إلى إحدى نتيجتين: إما إلى اليأس والقنوط، وإما إلى الإصرار على التغيير- كما قال أحد العلماء- ولا بديل عن الصبر والمصابرة، والتفاؤل والأمل. "**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**" سورة هود.

والحمد لله رب العالمين.